عيد مار مارون 2024

آبائي الأفاضل، حضرة الشماس والشدايقة، إخوتي الرهبان والراهبات، أبناء الأبرشية وبناتها الأعزّاء،

مقدمة: في عيدِ مار مارُون شفيع الكنيسة المارونيّة، يقفُ الموارنةُ وقفةً وجدانيّة تأمُّليّة. أَهمّ ما في وقفتهم هذه، أنّها متعلّقة بالماضي، تعلُّقًا لا مجالَ فيه للشكّ بقيمة ذلك الماضي؛ إذ إنّه بنظرِهم مجالُ اعتزازٍ ومنبَعُ قيمٍ ومصدرُ سلُوك. إلاّ أَنّ الماضي بالنسبةِ إليهِم لا يعني الجمودَ والتكرار، بل انتهاجَ سلُوكٍ، تَطبَعُهُ الأَمَانةُ للذاتِ ولِمَا مضى، ودافعًا للإبدَاعِ في الحاضر.

مار مارونَ والموارنةُ والمارونيّة، هي لنا رُوحانيّةٌ وتاريخٌ وأَرض، تراثٌ وآمَالٌ ومُرتَجى وتطلُّعات. تاريخٌ بدأَ من شمالِ سوريا، مع مارونَ في القرن الخامس، ومرّ بدير مارِ مارونَ على العاصي، مع البطريرك الأول يوحنّا مارُون، وصولاً إلى الهجرةِ نحو جبلِ لُبنان، رحلةٌ لن تنتهيَ إلاّ مع تحقيقِ حلُمِ الموارنةِ ألا وهو: تأْسِيسُ وطنٍ تعَدُّديّ، وطنٍ للحريّةِ والكرامَةِ والبَقَاء، وطنٍ يَضْمَنُ هذه الحريّةَ الفكريّةَ والدينيّةَ لجميع أبنائِه، ويكفَلُ لهم العيشَ الآمِنَ والكريم. قِيمٌ حملهَا الموارنَةُ إلى قبرص وفلسطينَ وسوريا والأردنَّ ومصرَ، وإلى الغربِ والاميركيّتين وأستراليا، أواخرَ القرنِ التاسعَ عشرَ حتَّى أَيَّامِنَا هَذِه.

1- اسم الكنيسةِ المارونيّة، يعُود إلى نَاسِكٍ أَرسل إليهِ يوحنّا الذهبيّ الفم من منفاه، بين سنتي 404 و 407، رسالةً صغيرةً يقولُ فيها: "إلى مارُونَ الكاهنَ والناسِك". عُرفَ هذا القدّيسُ بالتكرُّسِ الكاملِ لله في حياةٍ نُسكيّةٍ قاسية. قالَ عنهُ مؤرّخُ حياتِهِ الوحيد، ثيودوريطس، أُسقُف قورش: "لم يقتصر مارونُ على الأَعمالِ النُسكيَّة المُعتادة، بل زاد عليها ما ابتكرَتْهُ حِكمَتُهُ. لقد قصدَ جبلاً وكرَّسَ للهِ الهيكلَ الوثنيَّ المُخصَّصَ منذُ القدِيم لعبادةِ الضلال، صَارفًا أَيَّامَهُ ولياليهِ تَحتَ قُبَّةِ السَماء..." صلابةٌ مع الذَاتِ وغيرةٌ ولُيونَةٌ مع الغير، يُتابع المُؤَرّخُ ويقُول: "كانتِ الحمّى تَخْمُدُ بظلِّ بركَتِهِ، والأَبالِسَةُ تنهزِمُ أَمَامَهُ، والأَمراضُ على اختِلافِ أَجناسِهَا تُشفَى جميعُهَا بعلاجٍ واحِدٍ مِنهُ هُوَ الصَلاة... ولم يكُنْ يقتَصِرُ على مداواةِ أَمراضِ الجَسَد، بل كانَ يُعالِجُ النفُوسَ أيضًا بالأدويَةِ التي تُلائمُهَا: يَشفِي هذا منَ البُخْل، وذاكَ من الغضَب، ويُعلِّمُ هذا طُرُقَ العَفَافِ، وذاكَ مَبادئَ العَدَالَة...". لقد ذاعَ خَبَرُ قدَاسَتِهِ في تلك الأَنْحَاء، فأَتى إليهِ التلاميذُ رجالاً ونساء، ولَم تَمضِ مدَّةٌ حتَى غَدَا أَكثرُ نُسَّاكِ المنطقةِ من تلامذتِهِ، وهو الذي غَرسَ للهِ هذا البُستانَ المزدهِرَ

في أَنحاءِ المنطقة قاطِبة. القدّيسُ مارُون، هو للمسيحيَّة جَمعاء، ولكلّ الذينَ تَبعُوا الإنجيل، ويُمثِّلُ، بالنسبة إلى الكنيسة، المسيحيَّ الصادِقَ مَعَ نفسِهِ، والمُخْلِصَ لبيئَتِهِ وحضارتِهِ، والمُتفانِي غَيرةً في سبيل الشهادَةِ للمَسِيحِ يسُوع.

خِلال عُزلتهِ على جبل القورشيّةِ لينصَرِفَ إلى الصلاةِ والتَوبَة، جذَبَ مارُونُ إليهِ الجمُوعَ بِشَظَفِ عَيشِهِ وبِعجائِبِه. ولَمَّا توُفِّيَ، حوالي سنة 410، تَجَمَّع سُكَّانُ القُرى المُجاورةِ حولَ جُثمَانِهِ الذي نُقِل إلى مَحَلَّةٍ غيرِ مُحدَّدة، بين حلَبَ وقُورُش، حيث أَصبحَتِ الكنيسةُ التي كُرِّسَتْ لذِكرَاهُ مزَارًا.

2- كلامُنا عن القدّيسِ مَارُون يجعلنا نتكلّم عن الموارنة. أَصلُهم من شمال شرقِ سوريا، حيث عاش أبوهم مارون وحيثُ أُسِّسَ ديرُهُم الأوّل بقرب العاصي في تخوم الكنيسة الأنطاكيّة. إنَّهُم يعرِفُون تمامًا روحانيّة الراهب الأوّل وعقيدةَ الذين تَبِعُوهُ منذُ البدءِ حتَّى الفتحِ الإسلاميّ، ومن بعد ذلك يُسدَلُ السِتارُ عليهِم قرُونًا عديدةً فلا يَظهرُونَ من خلالها إلاّ ببعض شارداتٍ تدلُّ على أنَّهُم ما بَرِحُوا موجودينَ هُنا وهناك في مختلف الأَصقَاع. في حلب ومنبج وحمص وحماه، وكفر طابا ومعرّة النعمان، وتكريت والشام، وبخاصّة في جِبالِ لبنان. هذا ما يَعرِفُوه. أمّا كيف نشأُوا ككنيسة مستقلَّةٍ بقيادة بطريرك مُمَيَّزٍ عن غيرِهِ، فيعلَمُونَ أَنَّ مؤسِّسَهُم هو قدّيس أيضًا، واسمُهُ يُوحنَّا مارون، التلميذُ الروحيّ لِمَار مارون سنة 683 م.

المارونيّة في أَصلها طريقةُ نسكٍ رهبانيّ، نشأَت حول دير. حجرُ أَساسه: "هامَةُ راهب". وحجر عَقدِه: "اسمه راهب". ولقد ظلَّ طويلاً هذا الموقفُ النابعُ من الأنموذج الرهبانيّ عالقًا بالذهنيّة المارونيّة ينعكسُ عليهَا وعلى نوعِ تفكيرِها، وعلى مسلَكِهَا الاجتماعيّ وعلى جميع مُنشآتها الزمنيّة وإلى أَيَّامِنا هذه.

إنَّ مدى الموارنة الحقيقيّ ووطنَهُم الحقيقيّ هو رسالتُهُم التي تمتدُّ إلى أَبعدَ من تُخومٍ محدَّدة، لأَنّها رسالةٌ أنطاكيّة مرتبطةٌ أبدًا بسائر المشرق. والمارونيّة ليسَتْ مرتبطةً ارتباطًا نهائيًّا بعرقٍ أو بأرضٍ أو بلغةٍ أَو بتاريخ.

3-بالنسبة إلى العرق أولاً، لا ننسى أنّ المارونيّة لا تتحدّر من سلالة عنصُريّة، بل أنجبها راهب ناسك، عشقَ المسيح، هذا الراهب لم يلد إلاّ بنينَ روحيّين، وإنّ مَنِ انضوَوا إليهَا وكوَّنُوا جماعتَها منذُ بَدء العصُورِ حتّى العصور الحديثة، لم يتحدَّرُوا من شجرةٍ عائليّةٍ واحدة. فانتِماءاتُهُم متعدِّدة، من فينيقيّين وُجدُوا في الجبال وعلى الساحل، ومن مردةٍ جاؤُوا من فارسَ أَو من آسيا الصغرى، ومن آراميّين كانُوا يُشكِّلُون أَصلَ الجماعَةِ في أَرياف إنطاكية، ومن عرَبٍ وأَنبَاطٍ وغيرِهِم، ومن فرنجة اختلطُوا بهم زمن الصليبِيّين، وانتشرُوا في ديار الاغتراب، في قبرص ورودس وأُوروبا وأَميركا وأُستراليا وأَفريقيا. في النهاية لا تُحَدَّدُ المارونيّة بعرقيّة اللحم والدمّ،

بل بعراقة الأَهداف والمقاصد، عصبيّتها الحقيقيّة هي في التعصّب عَلى العصبيّات، هي لبنانيّة في لبنان، وسوريّة في سوريا، وفلسطينيّة في فلسطين، ومصريّة في مصر، ويونانيّة في قبرص.

4- ثمّ إن الآراميّة لا لُغة لهَا مُنْزَلة، على رغم ما تقولُه عن قدسيَّةِ الآراميّة السريانيّة في لغتها الطقسيّة والليتورجيّة القديمة. والبرهانُ على عدم ارتباطها بلغة، هي أنَّها تكلَّمت كُلَّ لغات الحضارات الكُبرى، أو تكاد تكونُ تكلَّمَتْهَا. أوّل نصٍّ تركَتْهُ لنَا المارونيّة، بإمضاء رئيس الدير الأوّل في سوريا الثانية، كان باليُونانيّة، ثمّ حافظت على طقُوسها باللغة السريانيّة. بينما كان من بقي من الموارنة في سوريا والعراق، يتكلَّمُ العربيّة. ثمّ إن المارونيّة ليست مُرتَهَنة بأرض ميعادٍ خاصّةٍ بِهم، مسجَّلةٍ على سجلّ الأزل. بالرغم من أنَّها مرتبطةٌ بلبنان، لكنَّها من حيث هي مشروعُ حريّة رُوحيّة، لا تستعبدُهَا الأرض. لا ننسى أنّ هذه المارونيّة إغريقيّة في إنطاكية بدءَ عهدها، وسريانيّة في سوريا الثانية، وعربيّة في حلب وتكريت، ويونانيّة في قبرص.

فهي على مستوى هذه الأصالة الروحيّة، أبعدُ من حُدُودِ لُبنان. فمارون وشربل، وما بينهُما من مئاتِ الوجوه المعلومة والمجهولة، هؤُلاءِ لَيسُوا رجالاً يُمكن حَصرُهُم بأرض، ولو أَنْجَبَتْهُم أَرضٌ معيَّنة. هم شهودُ روح، والروحُ مُطلق، والروحُ يتخطَّى الحدود الترابيّة. هَؤُلاءِ هُم أَوّل وأَصْدقُ شُهودِ المارونيّة.

هذا على المستوى الرُوحيّ، أمّا على المستوى الفكريّ، فإن رجَالاً كالسمعانيّ والحاقلانيّ والبستاني وجبران خليل جبران وسعيد عقل وغيرُهُم كثُر، ولو كانُوا ورثةَ تُراثٍ وأَبنَاءَ أَرضٍ وأَبناءَ تُراب، فَهُم منَاراتٍ أَضاءَ نورُهَا في أَزمنةِ سطُوع، ليُضيء معالِمَ التلاقي الإنسانيّ بين الشَرقِ والغَرب، فوق الحضارةِ المتوسطيّةِ التي كانُوا أكبر واضعي مُقدّماتِهَا، ومنظِّمي فهارسِها ومُعلّقي حواشِيها.

5- أَيُّها الإخوة، المارونيّة الحقيقيّة هي ما ذكرنا لا ما سواها. فمَنِ استمرّت به شهامةُ الفكرِ والرُوحِ هو مِنهَا، ومن انقطعَ عن تراثِ الفِكرِ والرُوحِ هو خَارجٌ عنها. أَمّا مَن هُو الآنَ منها، ومن هو من غيرها، ليس لنا أَن نَدينَ الناس، بخاصّة في هذه العتمة النازلة. إِنَّما لنا أَن نُذكّرَ أوّلاً الموارنة، بحقيقة أَصالتهِم، لِئَلاَّ ينخَدِعُوا بغيرها. وأن نُذكّرَ ثانيًا الآخرينَ بِمَا هي المارونيّةُ الحقيقيّة، لئلاَّ يَخلُطُوهَا بغيرها: إِنَّهَا رسَالةُ فِكرٍ ورُوح.

مارون الذي نكرّم اليوم لا يزالُ حيًّا في قلوبِ أَبنائهِ الموارنة، بالصلاة والتقشّف، بالمحبّة والرحمة. مارون الناسك، المصلّي والمتقشّف، بانفتاحه على الله وعلى أخيه الإنسان المتألّم، يرفع أنظارنا إلى العُلى، ويشفي أمراض النفس والجسد، ويُشِعُّ نُورَ الوفاءِ في قلوبِنا جميعًا، كي نسيرَ على خُطاهُ وخُطى القدّيسينَ وأولياءِ الله، قلبًا واحدًا وفكرًا واحدًا. وعلى أبناء مارون أن يعودوا إلى فضائل الإنجيل وقيمهِ الخُلُقيّة والاجتماعيّة، وأَن

يبرهِنُوا عمّا أُعطي لهم، وألاَّ يكُونوا موارنةً في الاسم وعلى الهويّة، بينما كثيرون غيرُهم، من سائر الطوائف المسيحيّة، ينظُرُونَ بعين التقدير والاحترام إلى القدّيس مارون وإلى الكنيسة المارونيّة، ولِما أَعطت الشرق والعالم من حضارة ونهضة في كافَّة الميادين. وعلى الرغم من الضعف البشريّ الذي رافق الكنيسة المارونيّة، والاضطهادات الخارجيّة والخلافات الداخليّة التي أَرهقتها طويلاً، نتيجة أخطاء بعض أَبنائها، بزَغَ فيهَا قدّيسُون رُفِعُوا على مذابح الكنيسة. ظاهرةُ القداسة هذِهْ ليست وليدةَ الصدفة، بل هي عنايةٌ ربَّانيّةٌ رافقتِ الكنيسةَ المارونيّةَ خلالَ تاريخِهَا الطويل.

6- وفي غمرة هذا العيد المبارك، اسمحُوا لي أن أختصر بكلمات ثلاث:

أ- العودة إلى الينابيع. في هذا العيد المبارك، عيُونُنا وقلُوبُنا إلى الماضي، لا لِنتسَمَّرَ في متحفِ الأَشياء والحقائق، بل لِنَغْرِفَ مِنهُ هديًا لواقعِنَا واستشرافًا لِمُستقبَلِنَا. فكلُّ مجتمعٍ لا جذُورَ لهُ، يَجِفُّ ويبَسُ ويَزُول. نحن ما زلنا نؤمنُ بقدسيّة القيمِ التي ورثناها عن الآباء والأجداد وبِها نُنادي.

ب- في عيد مار مارون، مطلُوبٌ منَّا أَنْ نفحصَ ضَميرَنَا إن كُنَّا ما زِلنَا قريبينَ من ذلك الينبوعِ النُسكِيّ الذي تفجَّرَ يومًا عَلى جبَل قورش. فالهويَّةُ وحدَهَا لا تَكفِي، بلِ الالتزَامُ الحياتِيّ والاجتماعيّ والعائليّ والروحيّ الذي يجبُ أَن يكُونَ إِيقُونَةً رائعةً لذلك القدّيس العظِيم، وشهادةً حيّةً على مَرِّ الأَجيال.

ج- الكلامُ على مارُون، والكلام على كنيسة أنطاكية صنوان لا يفترقان، ذلك أنّ الموارنة عاشُوا هُنا مُنذُ أَجيالٍ وقُرُون، وبنَوا لَهُم في جبَلِ لُبنانَ مُجتَمَعًا مُنفتحَ الآفاق، حُرًّا، مُستقلاً، نَمُوذجًا في التعايُشِ والاحترامِ المتبادَل والقَبُولِ بالآخر. إنَّ اختبارَنَا طوالَ مئاتِ السِنين، يؤَكِّدُ ما قاله الطوباويّ البابا يوحنّا بولس الثاني: إنّ لُبنان، هو أَكثرُ من وطن، إنَّهُ رسالة". صلاتُنَا اليوم أَن لا يَمُرَّ عيدُ مارِ مارُونَ دونَ أَنْ نَأخُذَ منهُ زوَّادةً لِلمُستقبَل. وسوف نحفَظُ مِنهُ دُونَ تردّد، ثلاث حقَائقَ جوهريّة:

- الموارنة كَنِيسةٌ لا طائفة. تستلهِمُ دومًا رُوحَ أَبيهَا الكاهِنِ الناسِكِ مَارُون، أَينمَا كانت.
- الموارنة شعبٌ رهبانيٌّ مُميَّز. يجب أَن يتميَّز بصفاتٍ رهبانيّةٍ منها وأَهمُّها: الصلاة، والنسك، والمحبّة، والقداسة؛ ورهباننا وشعبنا يسعيانِ إلى تَجسِيدِها يومًا بعدَ يَوم، وعِيدًا بعد عيد.
- الموارنة شبَابٌ يَرفُضُ الاستسلام إلى واقع لا يُرضي أَحلامَهُ وتطلُّعاتِهِ، فيَسْعَى إِلى تَغييرِه بكلِّ ما أُوتِيَ منِ اندِفاعٍ وصِدْقٍ وحيَويَّة.

7- في الختام، أُعَيِّدُ جميع أَبنائِنا وبناتنا في الأبرشيّة، ذاكرًا بنوع خاصّ كلَّ مَنْ دُعِيَ بإسم مَارُون، ومحبّي الكنيسة المارونيّة، وكلّ أحبّائنا الذين نشكّل وإيّاهم عائلة واحدة من لاتين وروم كاثوليك وروم أرثوذكس وغيرهُم ومن كافّة الأديان التي تتعايش في هذه الأبرشية ونيابة القدس وعمان، طالِبينَ مِن شفيعِنا أَن يحميَ الكنيسةَ من الأَخطار الداخليّة والخارجيّة، وأَن يَعُمَّ السلامُ في هذه الأَرضِ المقدَّسة، بين كافَّة شعُوبِهَا ومكوِّنَاتِها، فنبقى ملتزمين وبتعاليم السيّد المسيح لهُ المجدُ وبأُمِّه مريم العذراء وبفضائل القدِّيس مارون. أَلا بارَكَنَا الربُّ وبارَكَ كنِيستَنَا وأَوطانَنَا، بنعمَةِ الآبِ والابنِ والرُوحِ القُدُس، لهُ المجدُ إلى الأَبَد. آمين.

+ المطران موسى الحاج
أبرشيّة حيفا المارونيّة، نيابة القدس وعمان
عيد مار مارون، شباط 2024